مقدمة: التوحيد والجهاد .. الرسالة والرسول

تؤسس عقيدة "التوحيد" الإسلامى لمفهوم الذات الإنسانية "المستخلفة" والتى تمثل بدورها نوعا من التوفيق بين عبودية الإنسان لله، وسيادته على الكون كله. بل أنها تجعل من هذه العبودية شرطا لتلك السيادة، إذ تحفظ للفرد الإنساني حضوره فى الكون وأولويته على الخلائق كافة، ولكنها تبقى هذا الحضور فى ظل الله وفى إطار عهد استخلافه، لا تتنكر له ولا تسعى إلى إسقاطه من عليائه أو الادعاء بموته، فالذات الإنسانية المستخلفة هنا بمثابة نوع من الترشيد لمفهوم "الذات الإنسانية المطلقة" فى الوعى الغربى، والذى صاغته النزعة "الإنسانية" المتطرفة التى ادعت، فى ذروة عصر التنوير، بمركزية الإنسان فى الوجود، كمشرع لنفسه ورقيب على ذاته وصاحب حق مطلق فى الهيمنة على هذا الكون الواسع، حتى لو أدى ذلك إلى الإضرار بنفسه كما تجسد فى تناقضات الحروب العالمية / الأوربية، أو إلى إهدار الإنسانية المغايرة عبر الروح الكولونيالية الزاعقة فى القرنين الماضيين والتى لم تتوقف عن استغلال الإنسانية غير الأوروبية، أو حتى تدمير الطبيعة باستنزاف طاقاتها كما هو المآل منذ هبت الثورة الصناعية. إذ بالنسبة إلى الذات الإنسانية المطلقة هذه، فإن الله غير موجود أصلا، أو أنه قد مات مع بزوغ الإنسانية الجديدة المتوجة بسيف العقل البتار.

وحسب هذا الفهم يعكس مفهوم "الذات المستخلفة" تصالحا بين الأرض والسماء، أو بين عالمى الغيب والشهادة، فلا يحرم الإنسان من أن يقف على الأرض وهو يتطلع الى السماء، كما لا يحرمه من التطلع الى السماء وهو يقف على الأرض.

كما يمثل تصحيحا لـ "عهد الاستخلاف" الممنوح من الله الواحد الأحد مطلق التنزيه، للإنسان الكائن على هذه الأرض، والذى يفهمه الإسلام باعتباره عهدًا شاملا يضم البشرية بأسرها، إذ المستخلف هو الإنسان رمز الإنسانية كلها.. قبائلها، وشعوبها، وأممها، لا قبيلة أو شعب أو أمة بذاتها وهو الفهم الذى يتفق وجوهر الدين التوحيدى الذى يعدو الإسلام طبعته الثالثة المنقحة، وشريعته الجامعة الخاتمة، وهو الفهم الذى أوجب نزول الإسلام أصلا لتجاوز مأزقين أساسيين فى الشريعتين السابقتين؛

ـ ففى اليهودية كان الفهم القبلى للألوهية مبطلا لشمول العهد لأنهم قلصوا طرفه الثانى / الإنسان .. فعندما استأثر بنو إسرائيل بملكية العهد، فإنهم قد أبطلوه فى اللحظة نفسها إذ نسفوا إطاره وهو "إنسانيته".

ـ وفى المسيحية كان الفهم الإشراقى / الغنوصى للألوهية مشوها لروح العهد فى المسيحية، إذ عندما أله النصارى عيسى، وجعلوه أقنوما كاملا من أقانيم ثلاث نهائية فى "الذات الإلهية "، فإنهم قد أبطلوا العهد أيضا إذ شوهوا طرفه الأول المانح / الله إذ نسفوا جوهره وهو "مطلقيته".

وأما الإسلام ومن لحظة نزوله على العرب فكان واضحا أنه وحى الله مطلق التنزية، ورسالته إلى العالمين.. هكذا قال القرآن .. وهكذا دعا محمد .. وحتى عندما توفاه الله، كان قد استقر فى ضمير المسلمين كأمة وليدة أنها "أمة النبى" أى قومه فقط، وأما أمة الإسلام فهى العالم كله حيث كان الإنسان ويكون. وقد أحسن الخلفاء الأولون فهم جوهر العهد فلم يتوانوا عن تنفيذ بنوده، ومحاولة إبلاغ الدعوة الى كل البشر والأمم، لا من أجل فرض الإسلام على الناس، بل لتمكينهم من الاختيار الصحيح ما كان يقضى أولا تحرير إرادتهم ممن يحكمونهم، ثم عرض الرسالة عليهم.

وقد نهض المسلمون الأوائل بهذه المهمة فى مواجهة أمم عريقة، إمبراطوريات جبارة، وجيوش جرارة، فلم يرهبوهم، لأنهم تحلوا بالشجاعة التى يوفرها لهم الإسلام ، والإصرار الذى يمليه عهد الاستخلاف والذى يصوغ فهما رائقا لمعنى "الجهاد" ومبناه، عندما يقيم ذلك التوازن الرائع والدقيق بين طرفى الثنائية الوجودية الأساسية "الحياة والموت". فالجهاد فى الإسلام مشروع إنسانى حضارى شامل يبدأ بجهاد النفس لردها عن ضعفها وشهواتها بحثا عن طهارتها وسلامتها وخلاصها من النفاق والازدواجية ليتسنى لها أفضل ممارسة لعهد الاستخلاف الذى يبقى رسالة مقصودة لذاتها، وعمل واجب على أصحابه. ومن ثم تصبح لحياة المجاهد قيمة فى ذاتها، فهى ليست مجرد مدخل الى الموت عبر الجهاد "العسكرى"، بل ركيزة لإعادة صياغة عالم الشهادة الدنيوى/ الواقعى/ الإنساني على النحو الذى يُرضى الله. فإذا ما تحدى طواغيت البشر هذه الرسالة يكون قتالهم لتحرير إرادة الإنسان من الظلم والاغتراب والجبر على هذه الأرض، وهنا يُقبل المسلم على الجهاد واثق الخطى، رابط الجأش

صبورا، لا يهمه من أمر دنياه شيء بمجرد أن يستعيد تصوره الكلى والشامل للوجود الموزع بين عالم الشهادة وعالم الغيب. فإذا كان معانياً فى شاهده، فإن غيبه مزهر مثمر مورق واعد بالجنة والفلاح، لا ينفك عنه يقينه الكامل فى النصر الإلهى الذى يُمكِّن المقهورين من التحرر والمشاركة فى إعمار الوجود، فإذا لم يتمكن من النصر، كان له ثواب الشهادة. ومن ثم فالمسلم الصحيح لا ينزع الى تفضيل الموت "الشهادة" من دون تردد أو تعقل، ولكنه يرضى به فقط إيثاراً لله وعند الضرورة القصوى.

ولعل هذا الفهم العميق، والممارسة الإيجابية للجهاد هما اللذين أكسبا جماعة المؤمنين فى دولة "المدينة" الشجاعة الكافية لفتح الجزيرة العربية كلها والقضاء المبرم على الوثنية، ثم مكن الدولة / الأمة العربية انطلاقا من "المدينة" التى انكمشت الى مجرد عاصمة لها، من فتح البلاد والشعوب المجاورة فى الشام ومصر والعراق وفارس وصولا الى حدود الأمة الإسلامية الآن، عبر نوع من الاكتساح الدينى، والثقافى، والسياسى، والعسكرى أى الفتح الحضارى الشامل، فى دورة خصيبة من أنضر دورات التاريخ الحضارى... تحولت الجزيرة العربية معها من فراغ حضارى موحش، الى مركز حضارى مشع وجاذب وملهم فى نحو القرن أو أقل ...

وهنا وقفة موجزة عند هذه العملية التاريخية الكبرى "الفتوح الإسلامية" التى قامت بها الجماعة العربية الأولى "المؤمنة" انطلاقا من المدينة المنورة ، وعبر مراحل مختلفة جهادا فى سبيل الله نشرا لدينه "الإسلام"، وفى سبيل الإنسانية التى نزل من أجلها الإسلام، إشراكا لها فى مدنيته الجديدة، ودمجا لها فى عهد الاستخلاف الذى وكل الله به الإنسان لعمارة الأرض. وإذ تبدأ هذه الوقفة بتعريف لمعنى "الجهاد" فى الإسلام كشفا عن وجهه الحضارى الشامل، فإنها تمتد إلى "مبناه" أى مراحله الأساسية التى حولت "دولة المدينة " مهد المجتمع الإسلامى الأول إلى مجرد عاصمة للدولة العربية الكبرى مع موت الرسول "ص"، ثم إلى عاصمة للدولة الإسلامية الكبرى "الإمبراطورية" فى عهد خلفائه، والى مركز إشعاع فقهى، ساهم مع غيره من مراكز الإشعاع فى دمشق وبغداد وقرطبة والقاهرة، فى بناء معالم "الحضارة" الإسلامية. قبل أن نختتم الوقفة الموجزة هذه بإطلالة على "الإشكاليات" الفكرية وخصوصا تلك التى

يثيرها العقل الغربى المعاصر، حول هذه الظاهرة التاريخية الكبرى "الجهاد الإسلامى" التى طبعت بطابعها نحو الألف عام من الزمن العالمى، والتى يسعى هذا العقل مدفوعا بتمركزه حول ذاته، وغياب حسه التاريخى النقدى، إلى تشويهها أو اختزالها فى محض عملية عسكرية تم بها الاستيلاء العنيف على عقائد الناس مع أراضيهم، رغم كل شواهد التاريخ القيم والوسيط والحديث التى وشت ولا تزال تشى بأن العنف لا يغير العقائد، ولا يصنع الضمائر وإن أفرز أرواحا منافقة على مدى قصير، وتلك الأرواح المنافقة لا تصنع حضارة ولا تنشر عقيدة، كما أن ذلك المدى القصير لا يبقى طويلا ولا يحسب تاريخا. وهنا نوالى وقفاتنا الثلاث أولا عند المعنى وثانيا عند المبنى وثالثا عند الإشكاليات.

obeikandl.com